قضايا الفكر العربي المعاصر

محمود المسعدي يحدث «الآداب» عن

الوضع الثقافي في تونس

زار لبنان في هذا الشهر الاديب التونسي الكبير الاستاذ محمود المسعدي مدير التعليم الثانوي في الحكومة التونسية .

ويعرف قراء « الآداب » ان الاستاذ المسعدي ، مؤلف تمثيلية «السد» وروايتي «مولد النسيان» و «حدث ابو هريرة قال ...» هو المع وجه من وجوه الادب التونسي المعاصر .

وقد وجهت « الآداب » اليه عددا من الاسئلة التي تلقي ضوءا كاشفا على الوضع الثقافي في تونس . وهذه هي اجوبة الاديب العربي الكبير :

السؤال الاول ــ هل لكم ان ترسموا لقراء « الآداب » الخطوط الكبرى للوضع الثقافي والفكري في تونس ؟

١ ــ للواقع ــ اي واقع ــ على صاحب الفكر اذا رام تقريره او تحليله او وصفه المجرد ان لا ينقصه حقه من البحث العلمي وما يستلزم من تطويل الاستيعاب . وقد حملتموني بطبع سؤالكم على الاجمال . واود ان يؤخذ جوابي لكم على انه لا يعدو الاشارة البسيطة والايماء التقريبي .

في رأيي انه ينبغي اولا للمتطلع الى احوال تونس الثقافية والفكرية ان لا ينسى انها البلد التي كان لها بعد القرن الثاني للهجرة اعلام من علماء الاسلام امثال سحنون واسد بن الفرات تدوي باصواتهم اركان جامع القيروان ، وانها اغنت ثروة الثقافة العربية على كر العصور بمثل مؤلفات ابن رشيق وابن شرف وابي القاسم الشابي وانها كان بها طوال قرون احد معاقل العلم الاسلامي الثلاثة الكبرى الا وهي جامع الزيتونة بتونس والازهر بالقاهرة والقرويين بفاس ، ثم انها فوق ذلك كله انجبت للعالم باسره احد عمالقة الفكر الانساني : ابن خلدون ...

ولعل اخص خصائص الوضع الثقافي والفكري في تونس انه يتنزل في صميم هذه السنّة الثقافية العربية الاسلامية التي لا تزال سنته على وجه الدهر وانه قائم على هذا الضرب الفطري او الجبلي من الوفاء التاريخي الدائم الى ذاتيته تلك ولونه الانساني ذاك .

على ان من السنة ما قد يكون جمودا ومن الوفاء ما قد يكون شيخوخة ، ونضوب حياة . وما وفاء تونس ولا اخذها بسنتها الثقافية التالدة من هذا ولا من ذاك في شيء . بل لا اظنني مخطئا اذا قلت ان تونس لا تزال منذ القرون تجهد ان يكون وفاؤها لسنتها الثقافية وفاء « ديناميا » حيا لسنة « دينامية » متجددة حية وان يكون الذي ترثه عن الماضي في غير تنكر له او انكار نقطة انطلاق نحو جديد يكتسب بجهد جديد ويضاف الى صالح الموروث وباقيه .

بهذا يفهم السر في ان الثقافة التونسية والتفكير التونسي استطاعا ان يتحملا نحو القرن من الغزو الاوروبي والسطو الاستعماري وان يخرجا من ذلك بذاتية سالمة من مسخ التقليد للاجنبي والاصطباغ بمستعار الصبغة من ثقافته وتفكيره وسالمة في آن واحد من التجمد والتحجر في قديم الذاتية الموروثة اللذين كانت تدفع اليهما غريزة المحافظة على الوجود تجاه الاستعمار واخطاره وهجوماته .

ولا ريب ان طور « التعصّي » الضروري الذي مرّ به الشرق العربي كله بين اواسط القرن التاسع عشر واليوم قد مر على تونس أعسر ما يكون وفي اشد الظروف وبأعظم الاخطار . وقد خرجت منه البلاد مع ذلك بثقافة «مبعوثة» كأصدق ما يكون البعث واقوى ، وبفكر مجدد كأحيا ما يكون التجدد والتجديد . وما من شك عندي في ان الذي خرجت به تونس من هذا الطور هو ــ الى جانب محافظتها الكلية على ذاتيتها الثقافية العربية الاسلامية ــ تقوية الجانب «الانساني» الصميم من تفكيرها ونظرتها الى الوجود. وقديما انتقل ابن خلدون التونسي بالتفكير العربي الاسلامي

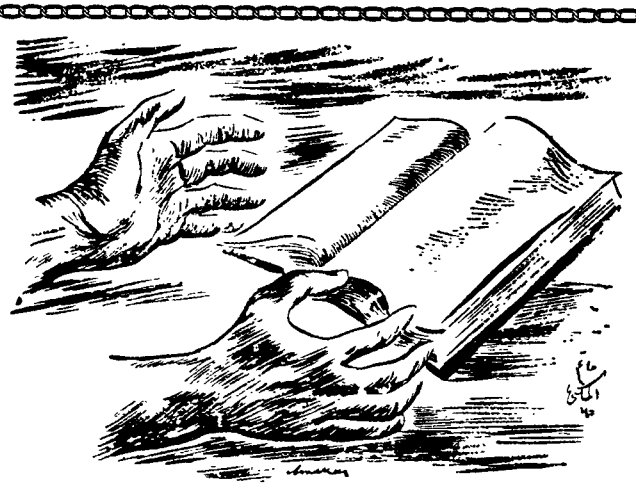

الكتاب ...

رسم للفنان التونسي حاتم المكي

من لفظة «سنة الله» التي كان بعض العملاء قبله يكررونها من دون معنى علمي الى مفهوم « السنن الكونية » المستقراة من واقع الاحداث والتي يعني جماع ما كسبه الفكرالانساني لما ابتدع العلم الحديث .

وكذلك في ميدان آخر ترى ابا الشابي يتأثر بالغرب وآدابه على طريق شعراء المهجر ولكنه لا يلبث ان يعود الى « حظيرته » الاولى مجددا النظرة والاحساس فيخرج شعرا عربيا صميما يتعالى فيه عن نواح « الرومانتيكية » المجردة وعن « العبرات » المنفلوطية الساذجة الى التغني بالحان مأساة مصير الانسان وشأنه في الوجود وفي الكون .

ومع انه ليس اكره الي من الكلام عن نفسي فأن التصفح والاستشهاد يوجبان علي ان اذكر هنا رواية « السد » التي نشرت لي بتونس في السنة الماضية والتي لا اعلم انه كتب عنها وعرفها في الشرق غير الدكتور طه حسين . وهي رواية عالجت فيها مشكلة الفعل والخلق الانساني من بعض وجوهها . وكل ما يهمني ذكره منها هنا انها تتناول مشكلة « وجودية » تنتسب في جوهرها الى بعض ما عالجته في القديم «الميثولوجية» اليونانية الخالدة وعالجه في العصر الحاضر الكثير من كتاب الغرب ومفكريه ، ولكنها مع ذلك منزلة تنزيلا في صميم الفلسفة الوجودية الشرقية او بالاحرى الاسلامية بكل ما تذهب اليه من تحديد لماهية الانسان ومنزلته من الله ومن الكون ومن تقدير لامكانيات الانسان وفعالية ارادته ولقدرته وخلقه وبكل ما تحويه تلك الفلسفة من روعة الايمان وقوة الشك (١)

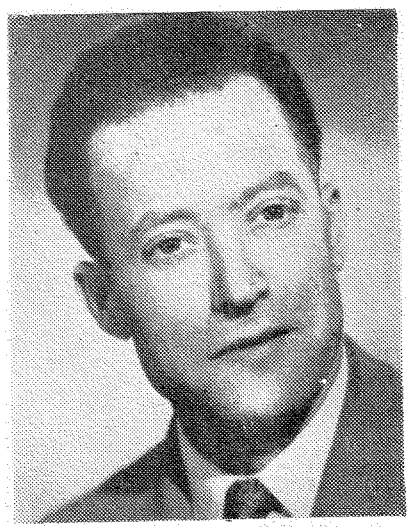

محمود المسعدي

السؤال الثاني ـ كانت الثقافة التونسية مرتبطة اشد الارتباط بالثقافة الفرنسية . فهل تعتقدون انها بدأت تستقل عنها ، وما هي خصائص هذا الاستقلال ؟

٢ ـ هذا ما كنت اتوقعه سؤالا منكم فتعمدت السكوت عنه في الجواب عن سؤالكم الاول عن الوضع الثقافي والفكري بتونس .

وسيكون جوابي لكم بسيطا: هذا الارتباط الذي تتحدثون عنه بين الثقافة بتونس (ولا اقول التونسية) وبين الثقافة الفرنسية هو اشبه شيء بالصلة بين الغل والمغلول به على وجه من الوجوه وبين الظمآن والماء الذي يشربه على وجه آخر . فان اخذته على الوجه الاول فما اظن ان غلا يصح ان يعد عنصرا من عناصر ثقافة المغلول به . وعلى كل فقد سقط الان وانكسر القيد . وان اخذته على الوجه الثاني فان الماء المشروب لا يسأل عنه بل المهم ان تعرف كيف اصبح الظمآن بعد شربه وهل ارواه الماء وهل انعش فيه قوى الحياة .

وذاك هو معنى الاستقلال في اخصب صوره واحياها ، ان يكون الغذاء خادما للحيوية وان ينقلب الى طبيعة المتغذي به قوة فيه . فان كان على هذا المعنى فان الثقافة بتونس كانت ولا تزال اشد الثقافات ـ الشرقية منها على الاقل ـ استقلالا عن الثقافة الفرنسية لانها كانت ولا تزال اشدها ملاصقة لها واكلا وهضما واشدها تغذيا بها وامتلاكا لقواها.

وهل شأن الحي غير انتزاع قوى الحياة من كل ما يجده حوله من مأكل ومشرب ؟ انما مدار الامر كله ان يقلب الآكل ما يأكل الى جوهره وطبعه . وقد سبق ان قلت ان الثقافة التونسية موفية كل الوفاء الى طبيعتها العربية الاسلامية . فاي ضير عليها بعد هذا من التغذي بالثقافة الفرنسية ـ في الماضي وفي المستقبل ـ او بغيرها من الثقافات الغربية ان هي استطاعت ان لا يمسخها الغذاء الى غير ما ينبغي ان تكون بحسب ارادتها الوجودية .

ولعل اشنع صور الاستقلال واقربها الى الحماقة استقلال الظمآن عن الماء . واشد الناس احتماء من ملابسة الغير من لم يكن له بقوة شخصيته وامتياز ذاتيته ايمان.

السؤال الثالث ـ ما هي في رأيكم اسباب تأخر الادب التونسي عن الادب العربي في الاقطار الاخرى ، بصرف النظر عن اضطهاد الاستعمار الفرنسي للفكر التونسي ؟

٣ ـ اما ان يكون هناك « تأخر » كما تقولون ففي الامر نظر... على الاقل . واما ان يكون انتاج تونس الادبي قليلا في الجملة فهذا امر لا ينكر . ولا ارى هذا الاقلال الحالي امرا غريبا . فان تونس كانت في جميع العصور مقلة على وجه العموم ، لم تنجب شعراء كثيرين ولم تنبت تربتها غير ابن خلدون واحد . على اني اعتقد مع ذلك ان هذا الاقلال لا يصم تقريره ، على وجه الاطلاق . فقد كان في الماضي ولا يزال في الحاضر بتونس انتاج فكري ليس في كميته ولا في قيمته قليلا كل القلة . ولكن مراكز

(١) راجع حول هذه النقطة ما كتبه المؤلف جوابا عن تحليل الدكتور طه حسين لرواية « السد » بمقاله في جريدة « الجمهورية » المصرية (انظر مجلة « الفكر » التونسية)

الاشعاع ـ ونقط الانطلاق ومصادر التصدير ان صح هذا التعبير ـ لم تزل منذ القديم واقعة بالشرق . فكل كلمة تقال بالشرق تسمع بالمغرب العربي وكل حدث يحدث بـه يدوي صداه هناك وكل شويعر او كويتب يظهر بالشرق يصل صيته الى المغرب وقد فخمته الابعاد ودوت به ابواق الصدى المترامي . وعلى العكس لا يكاد يصل الى الشرق من المغرب صوت ولا يصدى لديه صدى . حتى التيارات التجارية جارية على ذلك . فانه لا يكاد يصدر بالشرق (وبمصر ولبنان وسوريا خاصة) كتاب الا استوردته تونس وطالعه الناس . اما اذا صدر بتونس تأليف ما فانه قلما يستورده بالشرق مستورد او يسمع به بالتالي سامع . ومع ان التحري العلمي يوجب الاحتفاظ بالرأي والتحرز من الحكم على الادب التونسي قبل التصدي الى تعرفه والاطلاع على مجموع مؤلفاته وتناولها بالبحث والتحليل والنقد ، فاني شخصيا واثق ـ في غير زهو بادب بلادي ولا جحود جائر لقيمته ـ بانه ليس متأخرا عن ادب الشرق الى الحد الذي قد يظن . وهل نزل ادباء الشرق شعر الشابي وشاعريته الا المنزلة الممتازة التي تعلمون ؟ ولو تتبع الشرق حـركة تونس الادبية وانتاجها عن كثب واستدرك ما فاته حتـى الان من تعرفها حق المعرفة لاستقام له حينذاك ان يصدر فيها حكمه الصحيح . فلاجعل اذن آخر كلامي هنا رجاء في ان يكون استقلال تونس الحديث ودخولها عهد اتصال وتعاون مع شقيقاتها الشرقيةعاملا على تسهيل ذلك التعرف وعلى اتاحة الفرصة لادباء الشرق للاطلاع على مقدار ما تشارك به تونس في حقل النشاط الثقافي والادبي العربي العام من جهود وانتاج ولتقدير تلك المساهمة حق قدرها في الكمية وفي القيمة الفنية .

عند زيارتكم للقاهرة

تخـــيروا

فندق كلاريدج

بوسط القاهرة

شارع ٢٦ يوليو

الدخول : ٤١ شارع سليمان باشا

ادارة جـديدة ـ خدمة ممتازة ـ وسط عائلي

تلفون ٥٤٧٧٦

الادب السوفياتي

مجلة ادبية فكرية تصدر بعدة لغات تقدم لك احدث الروايات والقصص السوفياتية وتعرفك على تيارات الادب السوفياتي الجديد

ثمن العدد ٧٥ قرشا الاشتراك السنوي ٦٢٥ قرشا

الاتحاد السوفياتي

من اعظم المجلات المصورة في العالم تصدر بـ ١٣ لغة منها اللغة العربية .

مشاهد ومقالات عن حياة العمال والفلاحين والطلاب والعلماء والكتاب والفنانين والرياضيين لوحات ملونة رائعة ـ طباعة فاخرة

ثمن العدد ٥٠ قرشا الاشتراك السنوي ٥ ليرات

تباع وتقبل الاشتراكات في

دار الفارابي

بيروت ص. ب. ٣١٨١ ـ تلفون ٢٢٩١٢